

سردية المكان المسلوب؛ دراسة في تمثيلات القدس والقرية والحخم في الرواية الفلسطينية المعاصرة
The Narrative of the Usurped Place; A Study of the Representations of Jerusalem, the Village, and the Camp in the Contemporary Palestinian Novel.

* نسرین عطية¹ / محمد كنتاوي²

Attia Nesrine¹ / Kantaoui Mohamed²

جامعة أمينوكال الحاج موسى أق اخاموك تامنغست (الجزائر) 1

جامعة أحمد درارية أدرار (الجزائر) 2

University of Tamanghasset (Algeria) 1

Ahmed Draria University, Adrar (Algeria) 2

atianesrine@univ-tam.dz¹ / kantmed2301@univ-adrar.edu.dz²

تاريخ النشر: 2026/06/02

تاريخ القبول: 2026/03/05

تاريخ الإرسال: 2025/09/15

مَلِكُ حَيْضِ الْجَنَّةِ

تتناول هذه الدراسة تحليل "سردية المكان المسلوب" في الرواية الفلسطينية المعاصرة، مركزة على تمثيلات ثلاثة فضاءات رئيسية: القدس، القرية، والحخم. يهدف البحث إلى كشف كيفية تحول هذه الأماكن من مجرد خلفيات للأحداث إلى فضاءات حية ورموز أساسية في الوعي السردى الفلسطيني. تُظهر الروايات كيف تُصوّر القدس كمدينة روحية ومركز للصراع، بينما تُستحضر القرية كفضاء للذاكرة والهوية المفقودة، ويُصوّر الحخم كرمز للمنى المؤقت الذي تحول إلى مكان دائم للصمود. من خلال تحليل هذه التمثيلات، تسعى الدراسة إلى فهم كيفية تشكيل الروائيين الفلسطينيين لهوية المكان المسلوب، وكيف تُصبح هذه السرديات وسيلة للحفاظ على الذاكرة الجماعية ومقاومة محاولات طمس التاريخ. كما تُبرز الدراسة أن المكان في الرواية الفلسطينية ليس مجرد جغرافيا، بل هو كيان ثقافي وسياسي مرتبط بقوة بالهوية الوطنية.

الكلمات المفتاح: رواية فلسطينية، مكان مسلوب، قدس، قرية، حخم، ذاكرة، هوية.

Abstract :

This study analyzes the "narrative of the usurped place" in the contemporary Palestinian novel, focusing on the representations of three key spaces: Jerusalem, the village, and the refugee camp. The research aims to reveal how these places transform from mere backdrops for events into living spaces and fundamental symbols within the Palestinian narrative consciousness. The novels show how Jerusalem is depicted as a

* نسرین عطية: nesrineat496@gmail.com

spiritual city and a center of conflict, while the village is evoked as a space of memory and lost identity. The refugee camp is portrayed as a symbol of temporary exile that has turned into a permanent place of resilience. Through analyzing these representations, the study seeks to understand how Palestinian novelists shape the identity of the usurped place and how these narratives become a means of preserving collective memory and resisting attempts to erase history. The study highlights that the place in the Palestinian novel is not just a geography, but a cultural and political entity strongly linked to national identity.

Keywords: Palestinian Novel, Usurped Place, Jerusalem, Village, Refugee Camp, Memory, Identity.



المقدمة:

تشكل الجغرافيا في الوعي الفلسطيني بنية أساسية لا تنفصل عن الهوية والذاكرة والمقاومة، حيث يتجاوز المكان حدوده الفيزيائية ليصبح رمزاً ثقافياً ووجودياً يحمل في طياته تاريخاً مسروقاً وحاضراً مأزوماً ومستقبلاً مأمولاً. إن الرواية الفلسطينية المعاصرة، بوصفها مرآة تعكس التجربة الجمعية للشعب الفلسطيني، لم تكن مجرد حاوية لحكايات فردية، بل كانت بمثابة ذاكرة جمعية تحاول أن تعيد بناء المكان المفقود عبر اللغة والخيال والسرد. وفي هذا السياق، تبرز ثلاثية المكان الفلسطيني الأساسية: القدس بوصفها المركز الروحي والثقافي، والقرية كرمز للأصالة والجذور الضائعة، والخيم كفضاء الشتات والانتظار والمقاومة.

لقد أدت نكبة عام 1948 إلى تحويل جذري في البنية المكانية الفلسطينية، حيث تم اقتلاع مئات القرى الفلسطينية وتهجير سكانها، مما أدى إلى ولادة نوع جديد من الوعي المكاني يتسم بالحنين والألم والرفض. هذا التحول لم يؤثر فقط على الواقع الجغرافي، بل أثر بعمق على الخيال الأدبي الفلسطيني الذي وجد نفسه أمام مهمة مزدوجة: الحفاظ على ذاكرة المكان المسلوب من جهة، وإعادة تشكيله سردياً من جهة أخرى. من هنا، تصبح الرواية الفلسطينية المعاصرة مختبراً لتجريب أشكال جديدة من التمثيل المكاني، تجريب يتجاوز حدود الوصف والتوثيق ليدخل في منطقة أكثر تعقيداً من الإبداع والمقاومة الثقافية.

إن دراسة تمثيلات المكان في الرواية الفلسطينية المعاصرة تكشف عن طبقات متعددة من المعاني والدلالات التي تتجاوز السطح الحرفي للنص لتدخل في عمق الرؤية الفلسطينية للعالم. فالقدس، التي تحتل مكانة مقدسة في الوجدان الفلسطيني، تظهر في الرواية المعاصرة ليس فقط كمدينة تاريخية، بل كرمز للصمود والهوية المهددة. أما القرية، فتتمثل الفردوس المفقود والأصالة الضائعة، وهي تحمل في ثناياها ذاكرة جمعية لمنط حياة تم اجتثاثه بالقوة. وأخيراً، يبرز الخيم كفضاء معقد يجمع بين المعاناة والأمل، بين الشتات والوحدة، بين الواقع المرير والحلم بالعودة.

تطرح هذه الدراسة عدة إشكاليات نقدية أساسية تسعى للإجابة عنها من خلال تحليل للنصوص الروائية الفلسطينية المعاصرة. أهمها كيف تم تحويل الرواية الفلسطينية للمكان المسلوب من واقع جغرافي مفقود إلى فضاء سردي حي قادر على حمل الذاكرة والهوية والمقاومة؟ لأن هذا التحويل لا يحدث في فراغ، بل يتطلب استراتيجيات سردية معقدة تجمع بين التوثيق والخيال، بين الواقعية والرمزية، بين الفردي والجمعي.

وكيف تركز على التمايز الوظيفي بين الأمكنة الثلاثة في البنية السردية الفلسطينية؟ حيث تحمل كل منها دلالات خاصة ووظائف سردية مختلفة، مما يخلق تراتبية مكانية معقدة تعكس التراتبية الاجتماعية والثقافية في المجتمع الفلسطيني. وهناك إشكالية تتعلق بآليات المقاومة الثقافية التي تطورها الرواية الفلسطينية من خلال إعادة تمثيل المكان المسلوب، حيث تصبح الكتابة شكلاً من أشكال استرداد الأرض رمزياً وثقافياً. هذه المقاومة لا تتجلى فقط في رفض السرديات الاستعمارية، بل في خلق سرديات بديلة قادرة على تحدي الهيمنة الثقافية والسياسية للمحتل. وهذه الأخيرة تطرح سؤالاً حول تطور تمثيلات المكان في الرواية الفلسطينية المعاصرة، وكيف تأثرت هذه التمثيلات بالتحويلات السياسية والاجتماعية التي مر بها الشعب الفلسطيني، خاصة بعد اتفاقيات أوسلو والاتفاقيات المتتالية والحروب المتكررة على غزة.

1. القدس في الخيال الروائي الفلسطيني بين الواقع والرمز:

تتجلى القدس في الرواية الفلسطينية المعاصرة كمساحة معقدة ومتناقضة تحمل في طياتها عبء التاريخ وثقل الحاضر وآمال المستقبل. إن تمثيل القدس في النصوص الروائية لا يقتصر على وصفها كمدينة جغرافية محددة، بل يتجاوز ذلك ليشمل بناء صورة مركبة تجمع بين القداسة والعلانية، بين التاريخي والمعاصر، بين الحلم والواقع المرير. هذا التمثيل المعقد يعكس طبيعة العلاقة الاستثنائية بين الفلسطينيين والقدس، علاقة لا تقتصر على الانتماء الجغرافي بل تمتد لتشمل أبعاداً روحية وثقافية وسياسية عميقة.

في رواية "عازقة الناي" لعيسى القواسمي، نجد تمثيلاً للقدس يتأسس على ثنائية الحضور والغياب، حيث تظهر المدينة كفضاء مراوغ يفلت من قبضة السارد كلما حاول الإمساك به. يقول الراوي: "القدس تتملص من بين الأصابع كالرمل، كلما ظننت أنك أمسكت بها انفلتت منك لتصبح مجرد ذكرى أو حلم" (القواسمي، 2014، صفحة 67). هذا التملص لا يعكس فقط صعوبة الوصول الفيزيائي إلى المدينة، بل يشير إلى تحولها من مكان محسوس إلى رمز ثقافي يتجاوز حدوده المادية. إن هذا التحويل الرمزي للقدس يتيح للروائي الفلسطيني أن يحررها من قيود الواقع السياسي المعقد ليعيد بناءها كفضاء للأحلام والآمال والمقاومة.

تتكرر هذه الاستراتيجية السردية في أعمال أخرى، حيث نجد في رواية "أرض البرتقال الحزين" لغسان كنفاني تمثيلاً للقدس يتأسس على فكرة فقدان والاستعادة الدائمة. تظهر المدينة في النص كجبهة فقدت وبقيت ذاكرتها تطارد البطل أينما ذهب، وهي استعارة تحمل دلالات عميقة حول طبيعة العلاقة الفلسطينية بالأرض المسلوقة. يلاحظ كنفاني أن "القدس ليست مجرد مدينة، إنها حالة من الوجد الدائم تسكن في الروح قبل أن تسكن في الذاكرة" (كنفاني، 2023، صفحة 89). هذا التصور للقدس كحالة وجدانية يتيح للرواية أن تتجاوز حدود التوثيق التاريخي لتدخل في منطقة الإبداع الخالص، حيث تصبح الكتابة شكلاً من أشكال الحج الرمزي إلى المدينة المقدسة.

إن دراسة تمثيلات القدس في الرواية الفلسطينية المعاصرة تكشف عن تطور ملحوظ في الرؤية الروائية للمدينة، تطور يتزامن مع التحولات السياسية والاجتماعية التي شهدتها الصراع الفلسطيني-الإسرائيلي. ففي حين ركزت الروايات المبكرة على تصوير القدس كرمز للوطن المفقود والحنين إلى الماضي، نجد أن الروايات المعاصرة تطور رؤية أكثر تعقيداً تجمع بين النوستالجيا والنقد، بين التقديس والعلمنة، بين الأمل واليأس. هذا التطور يعكس نضج الخيال الأدبي الفلسطيني وقدرته على التعامل مع التناقضات الداخلية للتجربة الفلسطينية دون الوقوع في فخ التبسيط أو الأيديولوجيا المباشرة.

من جهة أخرى، تبرز في الروايات المعاصرة ظاهرة "أنسنة" القدس، حيث تكتسب المدينة صفات إنسانية وتصبح شخصية محورية في النص الروائي. هذه الأنسنة لا تقتصر على استخدام الاستعارات والتشبيهات، بل تمتد لتشمل بناء علاقات عاطفية ونفسية معقدة بين الشخصيات والمدينة. في هذا السياق، تصبح القدس أكثر من مجرد خلفية للأحداث، بل تتحول إلى فاعل أساسي يؤثر في مسار السرد ويشكل مصائر الشخصيات. هذا التحول في التمثيل السردية يعكس عمق الصلة الروحية والوجدانية بين الفلسطينيين والقدس، صلة تتجاوز حدود الانتماء الجغرافي لتصل إلى مستوى التوحد الوجودي.

2. القرية الفلسطينية ذاكرة الأصل وحنين الجدور:

تحتل القرية الفلسطينية مكانة خاصة في البنية السردية للرواية الفلسطينية المعاصرة، حيث تمثل الأصل المفقود والجنة الضائعة والهوية الأصلية قبل تشويهها بفعل النكبة والتهجير. إن تمثيل القرية في النصوص الروائية يتجاوز حدود الوصف الواقعي ليدخل في منطقة البناء الأسطوري، حيث تتحول القرية من مجرد تجمع سكني إلى رمز ثقافي شامل يحمل قيم الأصالة والبساطة والانسجام مع الطبيعة. هذا التحويل الأسطوري للقرية يعكس حاجة الخيال الفلسطيني إلى خلق مرجعية ثقافية صلبة قادرة على مقاومة سرديات الاقتلاع والتهجير.

في رواية "ظلال المفاتيح" لإبراهيم نصر الله، نجد تصويراً للقرية يتأسس على فكرة الفردوس المفقود، حيث تظهر القرية كمساحة نقية لم تمسها يد التدنيس الحضاري. يصف الراوي القرية قائلاً: "كانت القرية تنام في حضن التلال كطفل وادع، تنفس مع إيقاع الفصول وتحلم أحلام الأرض القديمة" (نصر الله، 2019، صفحة 76). هذا الوصف الشعري يكشف عن رؤية رومانسية للقرية تركز على علاقتها العضوية بالطبيعة وانسجامها مع الإيقاعات الكونية الطبيعية. إن هذه الرؤية، رغم شاعريتها، تحمل في طياتها نقداً ضمنياً للحدثة والتحضر القسري الذي فرضته ظروف التهجير والنفي.

تتطور هذه الرؤية الرومانسية في أعمال روائيين آخرين لتكتسب أبعاداً نقدية أكثر تعقيداً. في رواية "الصبار" لسحر خليفة، نجد تمثيلاً للقرية يجمع بين الحنين والنقد، حيث تظهر القرية كمساحة للذاكرة الجمعية ولكنها في الوقت نفسه مكان محدود بقيوده الاجتماعية والثقافية. تلاحظ خليفة أن "القرية تحتضن أطفالها بحنان ولكنها تخنقهم بتقاليدها" (خليفة، 2013، صفحة 156). هذا التمثيل المتناقض يعكس نضج الرؤية الروائية الفلسطينية وقدرتها على تجاوز الأيديولوجيا المباشرة للدخول في منطقة أكثر تعقيداً من النقد الاجتماعي والثقافي.

إن دراسة تمثيلات القرية في الرواية الفلسطينية المعاصرة تكشف عن استراتيجيات متنوعة لإعادة بناء الذاكرة الجمعية والحفاظ على الهوية الثقافية. هذه الاستراتيجيات تتراوح بين التوثيق التفصيلي للحياة القروية قبل النكبة، والبناء الرمزي لصورة مثالية عن القرية الفلسطينية، والنقد الاجتماعي لبعض جوانب الحياة التقليدية. كل هذه الاستراتيجيات تهدف في النهاية إلى مقاومة محاولات طمس الذاكرة الفلسطينية وإثبات الحق التاريخي في الأرض. من هنا، تصبح الكتابة عن القرية شكلاً من أشكال المقاومة الثقافية التي تتجاوز حدود الأدب لتدخل في مجال السياسة والهوية.

تبرز في هذا السياق أهمية دور المرأة في نقل ذاكرة القرية وحفظ تفاصيل الحياة التقليدية. في معظم الروايات المعاصرة، تظهر الجدة أو الأم كحارسة للذاكرة الجمعية، وهي التي تنقل إلى الأجيال الجديدة تفاصيل الحياة في القرية المفقودة. هذا الدور لا يقتصر على النقل المباشر للمعلومات، بل يمتد ليشمل نقل المشاعر والقيم والتقاليد. من خلال هذا الدور، تصبح المرأة الفلسطينية رمزاً للاستمرارية الثقافية والمقاومة الصامتة ضد محاولات القتل الثقافي.

3. الخيم فضاء الانتظار والمقاومة:

يمثل الخيم في الرواية الفلسطينية المعاصرة فضاءً معقداً ومتناقضاً يجمع بين الأمل والألم، بين المؤقت والدائم، بين الشتات والوحدة. إن ولادة الخيمات الفلسطينية في أعقاب نكبة 1948 لم تكن مجرد حل سكني مؤقت للاجئين، بل كانت بداية لظهور نوع جديد من الفضاء الثقافي والاجتماعي الذي سيؤثر بعمق على الخيال الأدبي الفلسطيني. هذا الفضاء الجديد يتسم بخصائص فريدة تميزه عن كل من القدس المقدسة والقرية الأصلية، حيث يحمل في طياته تناقضات الحاضر الفلسطيني وتعتيدات الوضع السياسي.

في رواية "رجال في الشمس" لغسان كنفاني، يبدو الخيم كنقطة انطلاق للبحث عن الخلاص، ولكنه في الوقت نفسه سجن نفسي واجتماعي يحاصر أحلام سكانه. يصف كنفاني الخيم بقوله: "البيوت الصغيرة تتراص في الخيم كأسنان مكسورة، كل بيت يحمل حلاً ويدفن يأساً" (كنفاني، 1963، صفحة 34). هذا الوصف يكشف عن طبيعة الخيم المزروعة، فهو من جهة مكان للأحلام والآمال، ومن جهة أخرى مساحة لليأس والإحباط. إن هذا التناقض ليس عرضياً، بل هو جوهري في طبيعة الخيم كفضاء انتقالي يقع بين الماضي المفقود والمستقبل المجهول.

تتطور تمثيلات الخيم في الروايات اللاحقة لتكتسب أبعاداً أكثر تعقيداً. في رواية "باب الشمس" لإلياس خوري، نجد تصويراً للخيم يركز على قدرته على خلق أشكال جديدة من التضامن الاجتماعي والمقاومة السياسية. يلاحظ الروائي أن "الخيم علم الناس أن يحبوا بعضهم بطريقة جديدة، حب يولد من الألم المشترك والحلم المشترك" (خوري، 1998، صفحة 232). هذه الرؤية تؤكد على الجانب الإيجابي للتجربة الفلسطينية في الخيمات، حيث تحولت المعاناة المشتركة إلى قوة موحدة قادرة على مقاومة محاولات التفتيت والتشتيت.

إن دراسة الخيم في الرواية الفلسطينية المعاصرة تكشف عن تطور ملحوظ في النظرة إلى هذا الفضاء الاستثنائي. ففي حين ركزت الروايات المبكرة على الجوانب السلبية للحياة في الخيم، نجد أن الروايات المعاصرة تطور رؤية أكثر توازناً تعترف بالمعاناة ولكنها تؤكد في الوقت نفسه على القدرة الإبداعية للشعب الفلسطيني في تحويل المحنة إلى منحة. هذا التحويل لا يحدث على مستوى الخطاب فحسب، بل على مستوى الممارسة اليومية، حيث نجد في الخيمات أشكالاً جديدة من التنظيم الاجتماعي والثقافي والسياسي.

من أهم الخصائص المميزة للمخيم في الرواية الفلسطينية المعاصرة كونه فضاءاً للذاكرة الجمعية، حيث يحتفظ سكانه بذكرات القرى والمدن التي هجروا منها، وينقلون هذه الذكريات إلى الأجيال الجديدة. هذا النقل لا يتم بطريقة ميكانيكية، بل يخضع لعمليات إعادة تشكيل وإعادة إنتاج مستمرة تجعل من الذاكرة مادة حية قابلة للتطور والنمو. في هذا السياق، يصبح المخيم أشبه بمتحف حي يحفظ التراث الفلسطيني ويطوره في الوقت نفسه.

4. آليات التمثيل السردية والاستراتيجيات الخطائية:

تتطلب دراسة تمثيلات المكان المسلوب في الرواية الفلسطينية المعاصرة تحليلاً معمقاً للآليات السردية والاستراتيجيات الخطائية التي يستخدمها الكاتب لإعادة بناء الفضاء المفقود في النص الأدبي. هذه "الآليات لا تقتصر على التقنيات الفنية البحتة، بل تمتد لتشمل الاختيارات الأيديولوجية والثقافية" (غاستون، 1984، صفحة 64) التي تشكل رؤية الكاتب للعالم وطريقة تعامله مع التاريخ والذاكرة والهوية. إن فهم هذه الآليات ضروري لفهم الكيفية التي تتحول بها الرواية الفلسطينية إلى أداة للمقاومة الثقافية وإعادة بناء الهوية الجمعية.

تبرز في هذا السياق تقنية "التداخل الزمني" كإحدى أهم الاستراتيجيات السردية في الرواية الفلسطينية المعاصرة. هذه التقنية تتيح للكاتب أن يجمع بين أزمنة مختلفة في النص الواحد، فيصبح الماضي حاضراً والمستقبل ماضياً، وتذوب الحدود الزمنية التقليدية لتخلق نوعاً من الزمن الدائري الذي يعكس طبيعة التجربة الفلسطينية المعقدة. في رواية "عائد إلى حيفا" لغسان كنفاني، نجد استخداماً بارعاً لهذه التقنية، حيث يتداخل زمن الزيارة الحاضر مع زمن الذكريات الماضي ليخلق نسيجاً سردياً معقداً يعكس تعقيد الموقف الفلسطيني. يقول كنفاني: "الوقت في حيفا لا يتحرك في خط مستقيم، بل يدور حول نفسه كعجلة مكسورة" (كنفاني، 1969، صفحة 45).

تتجلى استراتيجية أخرى مهمة في استخدام "الرمزية المكانية" حيث تكتسب الأماكن دلالات رمزية تتجاوز وظيفتها الجغرافية المباشرة. في هذا السياق، لا تعود القدس مجرد مدينة، بل تصبح رمزاً للقداسة والمقاومة، ولا تعود القرية مجرد تجمع سكاني، بل تتحول إلى رمز للأصالة والجذور، ولا يعود المخيم مجرد مكان سكن مؤقت، بل يصبح رمزاً للصمود والانتظار. "هذا التحويل الرمزي يتيح للرواية أن تتجاوز حدود التوثيق التاريخي لتدخل في منطقة الإبداع الخالص" (عبد الرحمن مصطفى، 2012، صفحة 103)، حيث تصبح الكتابة شكلاً من أشكال إعادة خلق العالم.

إن استراتيجية "الصوت المتعدد" تمثل تطوراً مهماً في الرواية الفلسطينية المعاصرة، حيث لا يعود السرد محتكراً من قبل صوت واحد، بل يتوزع على أصوات متعددة تعكس تنوع التجربة الفلسطينية وتعقدها. في رواية "ضحى" لحسن ياسين، نجد استخداماً بارعاً لهذه التقنية، حيث يتناوب على السرد أصوات مختلفة تمثل شرائح مختلفة من المجتمع الفلسطيني. يلاحظ الروائي أن "كل فلسطيني يحمل في داخله رواية كاملة، والكاتب مجرد جامع لهذه الروايات" (ياسين، 2012، صفحة 78). هذا التصور للكتابة كعمل جماعي يعكس طبيعة القضية الفلسطينية كقضية جمعية لا يمكن اختزالها في تجربة فردية واحدة.

تبرز كذلك تقنية "المونولوج الداخلي" كوسيلة فعالة لاستكشاف الحالة النفسية المعقدة للشخصيات الفلسطينية وعلاقتها بالمكان المسلوب. هذه "التقنية تتيح للقارئ أن يدخل إلى عمق التجربة الداخلية للشخصية، حيث تتصارع المشاعر المتناقضة من حنين وألم وأمل ويأس" (لودج، 2017، صفحة 66). في رواية "الزمن الموحش" لحيدر حيدر،

نجد استخداماً مكثفاً لهذه التقنية لتصوير الحالة النفسية للاجئ الذي يحاول أن يعيد بناء علاقته بالمكان من خلال الذاكرة والخيال. يقول حيدر: "الذاكرة هي الوطن الوحيد الذي لا يمكن لأحد أن يسلبه منا" (حيدر، 1973، صفحة 34). من الناحية اللغوية، تطور الرواية الفلسطينية المعاصرة استراتيجيات خاصة للتعامل مع تحدي التعبير عن التجربة الاستثنائية للشعب الفلسطيني. "هذه الاستراتيجيات تشمل استخدام اللهجات المحلية كوسيلة للحفاظ على الهوية الثقافية، والاستعانة بالتراث الشعبي والأمثال الشعبية كمصدر للحكمة والأصالة" (الداية، 2021، صفحة 97)، وابتكار مفردات جديدة قادرة على التعبير عن مفاهيم ومشاعر لا توجد لها مقابلات في المعاجم التقليدية. هذا الإبداع اللغوي لا يقتصر على الجانب الجمالي، بل يحمل أبعاداً سياسية وثقافية مهمة، حيث يصبح الإبداع في اللغة شكلاً من أشكال المقاومة ضد محاولات القتل الثقافي.

6. المقاومة الثقافية وإعادة تشكيل السردية:

تمثل الرواية الفلسطينية شكلاً من أشكال المقاومة الثقافية التي تتجاوز حدود المقاومة السياسية والعسكرية التقليدية لتدخل في مجال أكثر تعقيداً وعمقاً وهو مجال المعنى والدلالة والهوية. هذه "المقاومة الثقافية لا تتجلى فقط في رفض السرديات الاستعمارية المهيمنة، بل في خلق سرديات بديلة" (لومبا، 2013، صفحة 25) قادرة على تقديم رؤية فلسطينية أصيلة للتاريخ والحاضر والمستقبل. إن هذا العمل الثقافي المقاوم يتطلب مهارات إبداعية عالية وفهماً عميقاً لآليات الهيمنة الثقافية وطرق مقاومتها.

تتجلى المقاومة الثقافية في الرواية الفلسطينية من خلال عدة آليات أساسية، أولها "إعادة تسمية المكان" حيث "تحافظ الروايات على الأسماء العربية الأصلية للقرى والمدن والمواقع الجغرافية، وترفض استخدام الأسماء العبرية التي فرضها الاحتلال. هذا الرفض ليس مجرد موقف سياسي، بل هو ممارسة ثقافية عميقة تؤكد على الحق التاريخي" (الخلايلة، 1433، صفحة 255) للشعب الفلسطيني في أرضه. في رواية "سرايا بنت الغول" لإميل حبيبي، نجد إصراراً على استخدام الأسماء العربية الأصلية للأماكن مع شرح تفصيلي لمعانها وجذورها التاريخية. يقول حبيبي: "كل اسم في فلسطين يحكي حكاية، وكل حكاية تؤكد حقاً" (حبيبي، 2006، صفحة 67)

تتجلى آلية أخرى مهمة في "استرداد التاريخ المسكوت عنه" حيث تعمل الروايات على إحياء ذكريات وأحداث تم تجاهلها أو تشويهها في السرديات الرسمية. هذا العمل التاريخي لا يقتصر على إعادة سرد الأحداث الكبرى، بل يمتد ليشمل الحياة اليومية والتفاصيل الصغيرة التي تشكل نسيج الحياة الاجتماعية والثقافية. في رواية "الطنطورية" لرضوى عاشور، نجد محاولة جادة لإعادة بناء تاريخ قرية الطنطورة المدمرة من خلال ذكريات الناجين وشهاداتهم. تلاحظ عاشور أن "التاريخ الحقيقي محفوظ في قلوب الناس، وليس في كتب المنتصرين" (عاشوري، 2010، صفحة 89).

إن "تفكيك الصور النمطية" يمثل جانباً آخر مهماً من جوانب المقاومة الثقافية في "الرواية الفلسطينية المعاصرة. هذا التفكيك لا يقتصر على الصور النمطية التي ينتجها الآخر عن الفلسطينيين، بل يمتد ليشمل الصور النمطية الداخلية التي قد تحد من قدرة الخيال الفلسطيني على الإبداع والتطور" (أبو أصعب، 1985، صفحة 47). في هذا السياق، نجد روايات معاصرة تطرح أسئلة نقدية حول مفاهيم تقليدية مثل البطولة والتضحية والشهادة، وتسعى إلى فهم هذه المفاهيم في سياقها التاريخي والاجتماعي المعقد دون الوقوع في فخ التبسيط أو التمجيد الأعمى.

من جهة أخرى، تتجلى المقاومة الثقافية في "خلق لغة سردية مميزة تجمع بين الفصحى والعامية، بين التراثي والمعاصر، بين المحلي والعالمي. هذه اللغة المهجنة لا تنتج عن فقر لغوي، بل عن ثراء ثقافي يعكس تنوع مصادر الثقافة" (تاديه، 1998، صفحة 57) الفلسطينية وتفاعلها مع الثقافات الأخرى. في رواية "شرفة الفردوس" لإبراهيم نصر الله، نجد استخداماً بارعاً لهذه اللغة المتنوعة التي تتيح للكاتب أن يعبر عن دقائق التجربة الفلسطينية بكل تعقيداتها وتناقضاتها. يلاحظ نصر الله أن "اللغة هي الوطن الوحيد الذي يمكن للكاتب أن يسكن فيه بحرية كاملة" (نصر الله إ.، 2014، صفحة 156)

7. تجليات الزمن والذاكرة في بناء المكان السردية:

تتطلب دراسة سردية المكان المسلوب في الرواية الفلسطينية فهماً عميقاً للعلاقة الجدلية بين الزمن والذاكرة في بناء المكان السردية. هذه العلاقة لا تقتصر على الترابط الخطي بين الأحداث، بل تمتد لتشمل تداخلاً معقداً بين أزمنة متعددة تلتقي في لحظة السرد لتخلق نوعاً من الزمن الدائري الذي يعكس طبيعة التجربة الفلسطينية المأساوية. إن هذا التداخل الزمني ليس مجرد تقنية سردية، بل هو ضرورة وجودية تفرضها طبيعة العلاقة الفلسطينية بالمكان المسلوب. في السياق الفلسطيني، يصبح الماضي أكثر حضوراً من الحاضر، والمستقبل أكثر واقعية من الواقع الراهن. هذا التشويش الزمني يخلق نوعاً من الذاكرة المتحركة التي تنتقل عبر الأجيال حاملة معها تفاصيل الأمكنة المفقودة وخصائصها الجغرافية والثقافية. في رواية "ظلال العائلة" لمحمود شقير، نجد تجسيداً بارعاً لهذه الذاكرة المتحركة حيث تتداخل الذكريات. يقول شقير: "الذاكرة تبني البيوت أسرع من البنائين، وترزع الأشجار أسرع من المطر" (شقير، 2019، صفحة 78)

إن تحليل آليات الزمن والذاكرة في تمثيل المكان يكشف عن وجود ثلاثة أنماط زمنية أساسية في الرواية الفلسطينية: الزمن الدائري الذي يعيد إنتاج الماضي في الحاضر، والزمن المعلق الذي يجمد الأحداث في لحظة الكارثة، والزمن المتشظي الذي يفتت التجربة إلى لحظات متناثرة. كل نمط من هذه الأنماط يخدم غرضاً محدداً في بناء المكان السردية وتشكيل دلالاته الثقافية والسياسية. من خلال هذا التنوع الزمني، تستطيع الرواية الفلسطينية أن تحافظ على حيوية المكان المسلوب وتمنع تحوله إلى مجرد ذكرى باهتة.

8. الخاتمة

تكشف هذه الدراسة عن عمق وتعدد العلاقة بين المكان والسرد في الرواية الفلسطينية المعاصرة، حيث يتجاوز تمثيل المكان حدوده الجغرافية التقليدية ليصبح فضاءً رمزياً وثقافياً ونفسياً معقداً يحمل في طياته ذاكرة الشعب الفلسطيني وهويته ومقاومته. إن القدس والقرية والخيم، بوصفها الثلاثية المكانية الأساسية في الخيال الفلسطيني، تؤدي وظائف سردية ودلالية متميزة ولكنها متكاملة في تشكيل الرؤية الفلسطينية الشاملة للعالم. هذا التمايز الوظيفي لا يقتصر على الجانب الفني، بل يمتد ليشمل البعد السياسي والثقافي، حيث يصبح كل مكان حاملاً لرسالة محددة ووظيفة مقاومة خاصة.

حدوث تطور نوعي في الخطاب الروائي الفلسطيني، تطور يتجلى في الانتقال من النبذة الاحتجاجية المباشرة والتوثيق التاريخي البسيط إلى أشكال أكثر تعقيداً وتطوراً من التمثيل الفني والنقد الثقافي العميق. هذا التطور لا يعني

التخلي عن البعد السياسي والمقاوم للأدب الفلسطيني، بل يعني إدماجه في بنى سردية أكثر تطوراً وقدرة على التأثير والانتشار عالمياً. إن هذا التطور يعكس نضج الوعي الأدبي الفلسطيني وقدرته على التكيف مع المتغيرات الثقافية والسياسية المحلية والعالمية دون فقدان جوهره المقاوم.

تنوع الآليات السردية والتقنيات الفنية التي طورتها الرواية الفلسطينية المعاصرة للتعامل مع تحديات التمثيل المكاني، بما في ذلك التداخل الزمني والرمزية المكانية والصوت المتعدد والمونولوج الداخلي والأنسنة المكانية. هذه التقنيات لا تمثل مجرد أدوات فنية، بل تشكل استراتيجيات مقاومة ثقافية تهدف إلى خلق بدائل سردية للخطاب الاستعماري المهيمن. من خلال هذه التقنيات، تستطيع الرواية الفلسطينية أن تحافظ على خصوصيتها الثقافية وأن تطور لغة إبداعية قادرة على مواجهة محاولات الطمس والتشويه التي تتعرض لها الهوية الفلسطينية.

أن الرواية الفلسطينية المعاصرة تمثل شكلاً من أشكال المقاومة الثقافية الناعمة التي تعمل على الحفاظ على الهوية الفلسطينية وتطويرها في مواجهة محاولات الطمس والتشويه المنهجية التي يمارسها المشروع الاستعماري. هذه المقاومة تتجلى في إعادة تسمية المكان واسترداد التاريخ المسكوت عنه وتفنيد الصور النمطية وخلق لغة سردية مميزة قادرة على حمل خصوصية التجربة الفلسطينية. إن هذا العمل المقاوم لا يقتصر على الجانب الثقافي، بل يمتد ليشمل البعد السياسي والاجتماعي، حيث تصبح الكتابة شكلاً من أشكال العمل الوطني المقاوم.

وجود تحديات مهمة تواجه الرواية الفلسطينية المعاصرة، بما في ذلك تحدي التوازن بين المحلي والعالمي، وتحدي الحفاظ على الخصوصية الثقافية في عالم متزايد العولمة، وتحدي مخاطبة الأجيال الجديدة التي نشأت في ظروف مختلفة عن ظروف الآباء والأجداد. كما تواجه الرواية الفلسطينية تحدي التعامل مع الواقع السياسي المتغير، خاصة في ظل التطورات الإقليمية والدولية التي تؤثر على الصراع الفلسطيني-الإسرائيلي. هذه التحديات تفتح آفاقاً جديدة للإبداع والتطوير في المستقبل، وتتطلب من الكتاب الفلسطينيين تطوير استراتيجيات إبداعية جديدة قادرة على مواجهة هذه التحديات.

. قائمة المراجع:

1. إبراهيم نصر الله. (2014). شرقية الفردوس. الدار العربية للعلوم ناشرون.
2. ابراهيم نصر الله. (2019). ظلال المفاتيح، الملهة الفلسطينية. الدار العربية للعلوم ناشرون، أول جزء من ثلاثية الأجراس.
3. إلياس خوري. (1998). باب الشمس (المجلد 1). لبنان: دار الآداب للنشر والتوزيع.
4. إميل حبيبي. (2006). سرايا بنت الغول. دار الشروق للنشر والتوزيع.
5. آنيا لومبا. (2013). الكولونيالية وما بعدها. (المترجم: باسل المسالمة) التكوين للطباعة والنشر والتوزيع.
6. باشلار غاستون. (1984). جاليات المكان (المجلد 2). (المترجم: غالب هلسا) لبنان: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.

7. جان إيف تادييه. (1998). الرواية في القرن العشرين. (المترجم: محمد خير البقاعي) القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
8. حسين ياسين. (2012). ضحى (المجلد 1). المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
9. حيدر حيدر. (1973). الزمن الموحش. بيروت: دار العودة.
10. ديفيد لودج. (2017). الفن الروائي. (المترجم: ماهر البطوطي) مؤسسة هنداوي.
11. رضوى عاشوري. (2010). الطنطورية. دار الشروق المصرية.
12. سحر خليفة. (2013). الصبار (المجلد 3). دار الآداب للنشر والتوزيع.
13. صالح أبو أصع. (1985). فلسطين في الرواية العربية. بيروت: منظمة التحرير الفلسطينية.
14. علياء الداية. (2021). جاليات الهوية في الرواية العربية المعاصرة 1985 – 2015 (المجلد 1). دمشق: دار نينوى.
15. عيسى القواسمي. (2014). عازقة الناي (المجلد 1). دار الشروق للنشر والتوزيع.
16. غسان كنفاني. (1963). رجال في الشمس. بيروت: الدار الأهلية للنشر والتوزيع.
17. غسان كنفاني. (1969). عائد الى حيفا (المجلد 1). بيروت: دار الهلال.
18. غسان كنفاني. (2023). أرض البرتقال الحزين. دار الرواية العربية للنشر والتوزيع.
19. محمد خليل الخلايلة. (1433). المكان في نماذج من الرواية الفلسطينية، قراءة في القرية والمدينة والمخيم. مجلة العلوم العربية.
20. محمد عبد الرحمن مصطفى. (2012). الرمزية في الرواية المصرية بعد نجيب محفوظ. المجلس الأعلى للثقافة.
21. محمود شقير. (2019). ظلال العائلة. دار نوفل.